

4- الدولة الفاطمية (267هـ - 567هـ)

سبق وأن تحدثنا عن نشأة وظهور الخلافة الفاطمية في موضوع ابرز خلفاء المغرب ، حيث تناولنا الموضوع منذ بداية ظهور الدعوة الفاطمية الى أن انتقل عبيد الله المهدي الى مدينته المهديية والتي انتقل اليها سنة 308هـ، ثم أمر بعد ذلك ببناء مدينة اخرى بجوار المهديية سماها زويلة.

لقد أدرك الفاطميون ان بلاد المغرب لا تصلح لان تكون قاعدة لدولتهم بسبب ضعف مواردها الاقتصادية وكونها مسرحا للفتن والاضطرابات لذلك فكروا في السيطرة على مصر بسبب موقعها الجغرافي القريب من المشرق وكثرة ثرواتها ، كما أنها تصلح لان تكون قاعدة لتوجيهها لحملات ضد الخلافة العباسية .

وبدأ الخليفة الفاطمي الاول في وضع الترتيبات واعداد الخطط للسيطرة على مصر ، فوجه أولى حملاته عليها في سنة 301هـ. فأعد الخليفة المهدي في العام التالي أي سنة 302هـ حملة جديدة.

ثم استأنف الفاطميون حملاتهم على مصر في سنة 306 هـ وبعد فشل هذه المحاولة توقفت الحملات فترة امتدت الى سنة 321هـ. وأواخر عهد الخليفة المهدي ، حيث قدمت الى مصر في تلك السنة حملة فاطمية ، واستمرت الى سنة 322هـ ثم أرغمت على الانسحاب الى المغرب. وكان المهدي قد توفي في سنة 322هـ واستقرت الامور لولده ابو القاسم ببلاد المغرب . وتلقب بالخليفة القائم. وحذا حذو والده في سياسته الرامية الى ضم مصر ، فسير الجيوش في أواخر سنة 323هـ فدخلت الاسكندرية في أوائل سنة 324هـ الا ان الاخشيد تمكن من ابعادها وارغامها الى العودة الى المغرب .

وتوقفت حملات الفاطميين على مصر من خلال حكم المنصور الذي آلت اليه الخلافة بعد وفاة أبيه القائم سنة 334هـ وذلك بسبب انصرافه الى اقرار الامور في بلاد المغرب غير أن محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصر ما لبثت أن استأنفت خلال عهد المعز لدين الله الذي تولى الخلافة في سنة 341هـ. حيث ان الظروف السياسية في مصر لم تلبث أن حققت للفاطميين أهدافهم وذلك بعد وفاة كافور في سنة 357هـ وما تبع ذلك من تدهور خطير في أوضاع مصر الاقتصادية وانتشار الفوضى والاضطرابات في معظم أنحاءها .

وقد حشد الفاطميون قوات كبيرة في هذه الحملة التي تولى قيادتها جوهر الصقلي. وواصل تقدمه نحو مصر فدخل الاسكندرية واعطى للمصريين كتاب امان على انفسهم واملاكهم.

انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر :

شرع جوهر الصقلي في بناء مدينة جديدة تكون مقرا للخلافة الفاطمية فوضع أساس هذه المدينة في 17 شعبان سنة 358هـ ، ووضع في اليوم التالي اساس القصر الكبير ثم أقام حول المدينة والقصر سورا كبيرا . واختطت كل قبيلة من القبائل المغربية التي جاءت معه مكانا لها عرف باسمها ، وأطلق جوهر على مدينة هذه اسم المنصورية تقربا الى الخليفة المعز بإحياء ذكرى والده المنصور ، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى قدم المعز لدين الله الى مصر بعد أربع سنوات فسامها القاهرة تقاؤلا بأنها ستقهر الاعداء .

وشرع جوهر أيضا ببناء الجامع الازهر في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة 359 هـ ، وتم بناؤه في سنتين تقريبا . وكان هذا الجامع قد سمي في بادئ الامر بجامع القاهرة ، اما تسميته بالجامع الازهر فيظهر أنها اطلقت عليه بعد أنشاء القصور الفاطمية التي كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة .

وبدأ جوهر في اتخا 1 الخطوات لجعل القاهرة حاضرة للخلافة الفاطمية فأمر بإيقاف الدعوة للخلفاء العباسيين واقامها للمعز الفاطمي وضرب السكة باسمه ثم كتب اليه يستدعيه للحضور الى مصر لتولى الامور بنفسه بعد أن توطدت دعائم الحكم الفاطمي هناك ، فخرج المعز الى مصر في شوال سنة 361هـ بعد أن استخلف يوسف الصنهاجي على المغرب . ودخل الاسكندرية في شعبان من سنة 362هـ فخرج لاستقباله أعيان البلاد وفي مقدمتهم قاضي مصر ، ثم تابع سيره الى القاهرة فوصلها في يوم الثلاثاء السابع من رمضان سنة 362هـ ونزل في القصر الذي بناه له قائده جوهر الصقلي . وأصبحت مصر بعد قدوم المعز لدين الله الفاطمي دار خلافة .

امتداد الخلافة الفاطمية الى بلاد الشام والعراق الحجاز :

تطلع الفاطميون الى ضم بلاد الشام بعد أن تم لهم السيطرة على مصر وهو أمر تقتضيه الضرورة السياسية والعسكرية لكي يضمنوا تأمين حدود مصر في الشمال الشرقي.

وقد بادر جوهر الصقلي الى انفاذ جيش كبير الى الشام أسند قيادته الى جعفر بن فلاح الكتامي في أواخر سنة 358هـ.

فتقدم الى طبرية بعد استيلائه على الرملة فدخلها دون أي مقاومة تذكر من أهلها ، ثم تابع تقدمه الى دمشق فتمكن من الاستيلاء عليها بعد قتال شديد وأقام الخطبة للمعز الفاطمي في أوائل المحرم من سنة 359 هـ .

وعلى الرغم من الثورات التي أشعلها أهل دمشق ضد الفاطميين خلال عام 359 هـ ، 369 هـ فان جعفر بن فلاح استطاع أن يوطد نفوذه في دمشق باستعمال القوة ضد أهلها ، واقامت الدعوة للفاطميين في حلب في شهر ربيع الاول من سنة 360 هـ .

وعلى أن الفاطميين لم يلبثوا أن واجهوا في بلاد الشام خطرا قرامطة البحرين الذي هدد حكمهم في تلك البلاد ، ونجح القرامطة في هزيمة الفاطميين وقتل جعفر بن فلاح مع عدد من أصحابه في سنة 360 هـ ، واستولوا القرامطة على دمشق ، وأقاموا الدعوة للخليفة العباسي .

وواصل القرامطة بعد ذلك زحفهم فاستولوا على الرملة ويافا ، ولم يلبثوا أن قضوا على نفوذ الفاطميين في كل بلاد الشام ولم يبق أمامهم سوى الزحف نحو مصر نفسها ، فاستعد جوهر الصقلي لمواجهتهم وحسن القاهرة بخندق عظيم حولها ، ودارت الحرب بين الفريقين في مستهل ربيع الاول من سنة 361 هـ وانتهت بهزيمة القرامطة فانسحبوا الى بلاد الشام .

وبذلك تخلص الفاطميون من تهديد القرامطة لمصر . وبقي خطرهم ماثلا في بلاد الشام الامر الذي دفع المعز الى الاستعانة بيني الجراح بفلسطين كما قرب اليه الأمير ظالم بن موهوب العقلي وأسند اليه المعز ولاية دمشق في رمضان من سنة 363 هـ فقبض العقلي على والي دمشق أبو النجا القرمطي وولده . وتم للفاطميين استعادة نفوذهم على بلاد الشام .

أما عن النفوذ الفاطمي في العراق فقد ساعدت الظروف التي كانت تمر بها الخلافة العباسية في بغداد على تغلغل نفوذ الفاطميين واقامة الدعوة باسمهم لمدة قصيرة ، فقد أدى خروج القائد التركي البساسيري على طاعة الخليفة العباسي الى انجيازه الى الفاطميين واتصاله بالخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي أعلنت تأييده للبساسيري وأرسل اليه بالمال والخييل والسلاح والهدايا ، وتبودلت المراسلات بين البساسيري وداعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذي كان حينذاك مقيما في القاهرة .

وتم الاتفاق على ان يسير المؤيد في الدين الداعي الفاطمي لنجده البساسيري ، فخرج مع فئة قليلة من الرجال وحمل معه الاموال والسلاح والخلع ، فوصل الى ، الرحبة وعمل من هناك على استمالة أمراء العرب في العراق لضمان نجاح حركته ضد الخلافة العباسية والسلاجقة في بغداد . والواقع ان المؤيد هذا استغل فرصة الخلاف بين ابراهيم ينال واخيه السلطان طغرلبيك وعمل على كسب ود ابراهيم ، فأرسل الاخير يطلب الخلع والالتحاق والاموال من الخليفة الفاطمي وتعهد بأنه سيجعل الخطبة للفاطميين فشجعه المؤيد في حركته ضد أخيه طغرلبيك وتعهد له بتلبية طلباته فرحل ينال عن الموصل الى بلاد الجبل سنة 450هـ معلنا العصيان على السلطان طغرلبيك .

وانتهز المؤيد فرصة رحيل السلطان طغرلبيك عن بغداد وخلوها من العساكر فزحف نحوها على رأس اربعمائة فارس حاملا الرايات المستنصرية . وانضم اليه الامير قريش بن بدران العقلي في مائتي فارس. وتمكنا من الاستيلاء على بغداد من الثامن من شهر ذي القعدة سنة 450هـ واضطر الخليفة العباسي القائم بأمر الله الى طلب الامان من الامير قريش بن بدران ، فأجابته الى ذلك وبعث به مع ابن عمه الى حديثة عانه . وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في جميع المساجد ببغداد . غير أن نفوذ الفاطميين لم يستمر طويلا ، فقد تمكن طغرلبيك من القضاء على حركة أخيه ينال وقتله وتفرغ لمواجهة حركة البساسيري ، وأدرك الاخير انه لا قبل له في مواجهة السلاجقة خصوصا وأنه لم يتلق أي مساعدة من مصر تساعده على مقاومة السلطان طغرلبيك ، فرحل عند بغداد قاصدا الكوفة في السادس من ذي القعدة من سنة 451هـ ، واعيد الخليفة القائم بأمر الله الى بغداد وعهد طغرلبيك الى أحد قواده بالقضاء على البساسيري الذي كان معسكرا في الكوفة ، ولم يكتف بذلك بل سار بنفسه لقتال . ودارت معركة عنيفة بين الفريقين في منتصف ذي الحجة من سنة 451هـ انتهت بمقتل البساسيري ، وقضى بذلك على آخر أمل للفاطميين في العراق.

أما عن النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز ، فالواقعان الفاطميين كانوا قد حرصوا على أن يكون لهم الخطبة في الحرمين ليدعموا بذلك مركزهم على اعتبار أن الحجاز قبلة المسلمين جميعا . وكان أمير مكة قد أعلن الخطبة للمعز الفاطمي في سنة 358هـ.

على أن الخطبة للفاطميين في الحجاز ما لبثت أن قطعت في أواخر عهد المعز

وأوائل حكم العزيز بالله

ضعف الخلافة الفاطمية :

بدأ الضعف والانهيار يظهر على الخلافة الفاطمية بسبب عوامل خارجية وداخلية أثرت في كيان الدولة وعجلت بنهايتها ، من هذه العوامل:

1- التنافس بين عناصر الجيش الفاطمي الذي أسهم في تدهور حالة مصر الاقتصادية . بسبب محاولتهم الاستبداد بالسلطة لتحقيق اطماعهم الشخصية ، ومما زاد في سوء الحالة الاقتصادية المجاعة التي بدأت بانخفاض النيل سنة 457 هـ واستمرت سبع سنوات ارتفعت خلالها الاستعار ارتفاعا كبيرا وانعدمت الاقوات في البلاد حتى اضطر اصحاب النفوذ والاعيان الى مغادرة مصر الى الشام والعراق .

2- أما العامل الاخر الذي أسهم في أضعاف الخلافة الفاطمية فهو ازدياد سلطة الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخليفة .

3-شهد العصر الفاطمي الاخير صراعا شديدا بين رجال الدولة حول الوزارة واندلعت الحروب والفتن بين الطامعين في هذا المنصب ، ثم ازداد الامر خطورة حين تطلع هؤلاء الى الاستعانة بالقوى المجاورة التي تحركت هي الاخرى لغرض سيطرتها على مصر .

وبوفاة الخليفة القاطمي العاضد سنة 567هـ ، انتهى النفوذ الفاطمي في مصر بعد حكم دام قرابة قرنين من الزمن .